سياسة المرابطين الفكرية
بين
التأييد والتنديد

كتب المرابطون صفحات مشرقة ومشرفة في تاريخ الغرب الإسلامي على الصعيدين السياسي والجهادي . فضلاً عن دورهم في إنعاش حركة التجارة عبر الصحراء وما ترتب عليه من تأكيد انتشار الإسلام في بلاد المغرب وتمديد رقعة انتشاره في إفريقيا السوداء .

فعلى الصعيد السياسي ؛ وضعوا نهاية للفوضى والقلاقل التي استشرت في بلاد المغرب إبان حقبة السيطرة الزناتية . بل حققوا وحدة المغرب سياسياً ـ باستثناء إفريقية ـ فضلاً عن الأندلس تحت لواء حكومة مغربية إسلامية قحة لأول مرة في التاريخ . ومهدوا لوحدة الغرب الإسلامي برمته التي حققها الموحدون من بعدهم . ولا نبالغ إذ نجزم بأن هذا الأنجاز الهائل يمثل طوراً متقدماً في تاريخ « الأمازيغ » يتسم بالحنكة والدربة السياسية ، متجاوزين مرحلة « المراهقة السياسية » السابقة التي كانت مصائر الغرب الإسلامي

إبانها معلقة بأيدي قوى وحكومات من غير البربر ، أغلبها وافد من الشرق .

وعلى الصعيد العسكري والجهادي ، عبرت معارك المرابطين المظفرة من الجنوب إلى الشمال والشرق عن تعاظم دور القوى « الطرفدارية » المهمشة في حسم الصراع المتميع داخل قلب أقاليم « دار الإسلام » التي عجزت الخلافة كنظام عن حسمه بعد أن فقدت قوتها ومن ثم وظيفتها في توحيد « دار الإسلام » من ناحية وجعلتها عرضه لأطماع « دار الحرب » من ناحية أخرى . لقد كان المرابطون - شأنهم شأن السلاجقة في الشرق - قوي بدوية فتية أمدت الطاقة القتالية الإسلامية بزخم جديد وأهلتها للتصدي بنجاح - ولو موقوت - لأخطار الصليبية المتذبة في الشام والأندلس . لقد مثلت تلك القوى البدوية الطرفدارية «بروليتاريا خارجية» - إن جاز اقتباس مصطلحات توينبي - استطاعت عن طريق الغلبة أن تحسم الصراع السقيم والطويل بين الطبقات المتطاحنة في قلب العالم الإسلامي (١) . لقد أبلى المرابطون بلاء حسناً في معاركهم بالأندلس من أجل « استنقاذه » من خطر « حركة الاسترداد » الأسبانية التي كانت مشاريعها السياسية لا تستهدف الأندلس وحدها بل ربما تجاوزتها إلى بلاد المغرب ؛ اذا ما أدركنا خطورة مخططات الصليبية الأوروبية في العالم الإسلامي بأسره . وفي هذا الصدد نجح المرابطون - على الأقل - في « تحجيم » هذا الخطر والحيلولة دون سقوط الأندلس إلى حين .

وعلى الصعيد الإقتصادي شهد الغرب الإسلامي نقلة كبرى - بفضل المرابطين - نجمت عن توحيد منابع ومصادر ومواد وطرق

وأسواق « تجارة العبور » بين الشمال والجنوب بفضل وحدة الغرب الإسلامي التي أنجزها المرابطون .

ونجم عن ذلك تأكيد إنتشار الإسلام السني على أنقاض « الفرقية » المتطاحنة بعد أن أفلست الإديولوجيات الخارجية والإعتزالية والشيعية في مهامها « التوحيدية » . ولأن الحركة المرابطية ارتكزت على عصبية بدوية ـ صنهاجة اللثام ـ وإديولوجية سنية مالكية جهادية ومرابطة ؛ فإن معارك المرابطين الأولى أسفرت ضمن ما أسفرت عن تأكيد انتشار الإسلام في الصحراء الكبرى من ناحية ، فضلاً عن انتشاره بين الشعوب الإفريقية السوداء جنوبي الصحراء من ناحية أخرى .

وبديهي أن يسفر ذلك كله عن نهضة حضارية على الأقل في جانبها المادي العمراني ؛ تشهد عليها الآثار المرابطية الباقية في بلاد المغرب والأندلس .

وما يعنينا أن المؤرخين أجمعوا على مآثر المرابطين في هذه الجوانب السياسية والعسكرية والإقتصادية والإجتماعية والعمرانية ؛ لكنهم اختلفوا في الدور الفكري الذي لعبه المرابطون على صعيد الغرب الإسلامي . ومهمة هذه « الورقة » معالجة هذه الإشكالية بتبيان سياسة المرابطين الفكرية ومدى حظها من التأييد أو التنديد . وأخيراً محاولة الفصل في القضية من خلال البراهين والحجج التاريخية والقرائن المنطقية وفق منهج سوسيولوجي شمولي سبق أن اعتمدناه في دراسات سابقة (١) .

وننوه بأن استقصاء الحقيقة في هذا الصدد أمر تنوء به هذه الوريقات المحدودة . لذا سنركز على جانب واحد في الموضوع ؛ لكنه

من الأهميـة بحيث يشكـل عصبـه وقـوامـه وبحيث يؤدي استقصـاء حقيقتـه إلى فهم جوهـر القضية برمتها . هـذا الجانب يتمحـور في السؤال التالي : هل أتاح الوجود المرابطي مناخاً فكرياً متسامحاً يعطي الفرصة للعقول والقرائـح كي تبدع وتنجـز ، أم أنهم صادروا عـلى حرية الفكر باللاهوت ؟

وبالمثل تحتاج الإجابة على هذا السؤال السهل شكليـاً والملغز في الحقيقة إحاطة شاملة بدقائق وجزئيات الحياة الفكرية في الإمبراطورية المرابطية . هذا بـالإضافـة إلى استيعاب مـا كانت عليـه هذه الحيـاة الفكـرية قبـل وبعد الـوجود المـرابطي ؛ حتى يمكن تـأطـير سيـاسـة المرابطين الفكرية تأطيراً صحيحاً . وهذا في حد ذاته يشكل إشكالية منهجية جديدة .

من أجل تجاوز هذه الإشكاليـة لم تكن ثمة مندوحة عن قـراءة متأنية لكل ما هو متاح في المظان الأصلية حول الموضوع لتكوين خلفية فكرية دقيقة نقيس عليها الرؤى المختلفة للقضيـة ونحتكم إليها من أجل البت فيها . وفي ذات الوقت التعويل على آخر ما كتب أكاديمياً باعتباره مدخلاً طبيعياً لولوج الموضوع .

ومن غـريب الإتفـاق أن مـا كتب في هـذا الصـدد عبـارة عن أطروحتين لدرجة الدكتوراه لدارستين مصريتين اشترك كاتب الدراسة في منـاقشة الأولى بكليـة الآداب جامعـة القاهـرة . أما الأطـروحـة الثانية ، فقد أشرف عليها واشترك بالمثل في مناقشتها بكليـة الآداب جامعة عين شمس .

ومن المدهش أيضاً أن الباحثتين اختلفتا مع وجهة نظر الكاتب في تقويم سياسة المرابطين الفكرية ؛ إذ أجمعتا على تأييد هذه السياسة .

ولا أقل من نقل المناقشة مرة أخرى إلى « مراكش » الحمراء بين ثلة من الدارسين المتخصصين لمناقشة رأي الباحثين وتبيان وجهة نظرنا في القضية . وأحسب سلفاً أن رؤيتنا سوف تثير من غبار الحوار ما يثري الموضوع ويساعد على فهمه فهماً موضوعياً .

أما عن الأطروحة الأولى فقد أنجزتها الدكتورة منى حسن محمود ـ ووالدها الدكتور حسن احمد محمود رائد من رواد تاريخ المغرب الإسلامي عامة وعلم من أعلام الدراسات المرابطية خاصة ، وهو فضلاً عن ذلك أستاذي الذي أشرف بالتتلمذ عليه ـ وتحمل الأطروحة عنوان « الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في مراكش خلال عصري المرابطين والموحدين » . وقد أشرف عليها أستاذنا الدكتور محمد جمال الدين سرور . وننوه بأن الأطروحة حازت مرتبة الشرف الأولى .

حاولت الباحثة إثبات نهضة فكرية وازدهار ثقافي في مراكش المرابطية . واستندت في ذلك إلى عدد من الأدلة نجملها فيما يأتي :

(١) أن مراكش ـ بعد تأسيسها ـ غدت مركزاً لحركة ثقافية مزدهرة نتيجة هجرة العديد من العلماء والمفكرين والأدباء والشعراء من سائر جهات العالم الإسلامي . وتسوق في ذلك نصاً للمراكشي[٢] يقول : « . . . إجتمع ليوسف بن تاشفين وابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق إجتماعه في عصر من الأعصار » .

(٢) تشجيع يوسف وعلي ابنه هؤلاء الوافدين على مواصلة الإبداع وحرصهما على انتشار المكتبات والمدارس والكتاتيب استناداً

لشهادتي الحسن الوزان[٣] والمراكشي[٤] .

(٣) ازدهار دراسة علوم الطب والرياضيات إلى جانب علوم الدين واللغة[٥] .

إن هذه القرائن التي تنطوي على وجاهة « برانية » تفقد مصداقيتها أمام البحث العلمي الرصين . ومكمن الخطأ الفادح في دعوى الباحثة عن ازدهار الفكر في مراكش راجع إلى خلطها بين النصوص والمعلومات التي تتعلق بمراكش المرابطية بتلك المتعلقة بمراكش الموحدية التي شهدت بالفعل ازدهاراً فكرياً .

أما عن نص المراكشي الذي استخلصت منه الباحثة أن مراكش غصت بالمهاجرين من العلماء والمفكرين والأدباء ؛ فقد أخطأت قراءته وحملته ما لم يتضمنه ألبتة . إذ نص النص فقط على « أعيان الكتاب وفقهاء البلاغة » ولم يرد به ذكر للعلماء والمفكرين والأدباء .

وتشجيع أمراء المرابطين لهؤلاء الكتاب وأهل البلاغة مرتبط بحاجة الدولة لهم في الأمور الإدارية والدواوين السلطانية فضلاً عن تفقيه آل البيت المرابطي بأصول اللغة العربية التي كانوا لا يجيدونها[٥]. ناهيك عن كون الهجرة إلى مراكش ظاهرة طبيعية في حد ذاتها . وهي مرتبطة بأحوال العمران وليس بتشجيع العلم وطلبه ؛ خاصة بعد استشراء الفوضى في مدن المغرب إبان المرحلة الزناتية السابقة[٦] . لقد استقطب مراكش ـ كعاصمة إدارية ومركز تجاري هام ـ دور سجلماسة وتارودنت وغيرها ؛ فغصت بصنوف التجار من الشرق والغرب سواء بسواء . وشجع على ذلك ما نسج حول شخص يوسف بن تاشفين من شهرة باعتباره مجاهداً في ديار الشرك جنوباً وفي

الأندلس شمالاً . صفوة القول أن أموراً عدة ليس من بينها العلم والفكر هي التي جعلت من مراكش قبلة للوافدين من المشرق والمغرب والأندلس .

أما عن تشجيع المرابطين لهؤلاء الوافدين ؛ فهو أمر مألوف بالنسبة لحكام الدول المستجدة على أنقاض أخرى مهترئة .

وبخصوص ظاهرة انتشار الكتب والمكتبات والمدارس والكتاتيب وما شابه ؛ فليس المهم ذلك الإنتشار الكمي بقدر المستوى الكيفي . إذ ينعقد السؤال : ما هي طبيعة المصنفات التي راجت في هذا العصر ؟ لقد راجت كتب الفقه المالكي على حساب المذاهب الفقهية والكلامية الأخرى كما سنوضح في موضعه .

وإذ جرى الإهتمام بالطب والرياضيات وما شابه ؛ فلم يكن من أجل البحث والدرس والإبداع بقدر ما كان لخدمة أغراض عملية تطبيقية بقصد المنفعة . وحسبنا أن مؤرخي العلم لم يقفوا على أدنى أثر لتقدم علمي في هذه المجالات زمن المرابطين . وحسبنا أيضاً أن العلوم الدينية ـ باستثناء علم الفروع وعلم القراءات ـ قد أهملت وخبا شأنها . فعلم الفلك حاربه المرابطون واضطهدوا أصحابه كما ذكرت الباحثة (٧) . وعلم التاريخ الذي ازدهر قبل المرابطين وبعدهم اقتصر على مجرد مختصرات في السير والمغازي (٨) ؛ رغم تتابع أحداثه الجسام . كما تقلصت ظاهرة « الرحلة في طلب العلم » إبان الحقبة المرابطية بعد أن كانت مزدهرة سلفاً واقتصرت على طلب التراث الفقهي المالكي كما ذهب أستاذنا الدكتور حسن محمود والد الباحثة (٩) .

الخلاصة ؛ أن ما ساقته الباحثة من أسانيد على ازدهار الحياة الفكرية إبان عصر المرابطين أعجز من أن تستقيم أمام الحقيقة الموضوعية .

أما عن الأطروحة الثانية التي حازت بها الدكتورة عصمت دندش درجة الدكتوراه تحت إشراف كاتب الدراسة فتحمل عنوان : « الأندلس في نهاية عصر المرابطين وبداية عصر الموحدين » فهي أكثر تحمساً للدفاع عن المرابطين عموماً وسياستهم الفكرية على نحو خاص . والحق ـ أن الباحثة حشدت لدعواها مزيداً من النصوص والبراهين والأدلة وعرضت للقضية بمزيد من التعمق والفحص . ولا أقل من عرض طروحاتها أولاً قبل التصدي لمناقشتها .

تذهب الباحثة ـ بحق ـ إلى أن العصر المرابطي ضحية مؤامرة معرفية حيكت خيوطها في عصر الموحدين . وتخلت في المقابل عن مكانة « القاضي » لتتشح برداء « المحامي » لتفند في حماس مقعقع تلك الروايات التي تتحامل على المرابطين بالحق أو بالباطل . وحين أعيتها السبل في دفاعها المستأسد لم تجد مناصا من إلقاء تهمة اضطهاد المرابطين أهل الفكر على الفقهاء .

لقد نفت الباحثة ما ألصق بيوسف بن تاشفين من تهم الغلظة والجهل والتزمت ، كما نافحت لتثبت علمه باللغة العربية (١١) باعتباره رائداً لنهضة ثقافية فضلا عن كونه « مجاهداً » لا يشق له غبار . وذهبت في هذا الصدد مذهب الدكتورة مني حسن محمود حين اعتسفت تأويل النصوص لتثبت تشجيع يوسف وبنيه للعلماء والتمكين من الأدباء والشعراء . وبررت نقمته على بعض الشعراء بضعف تربيته الدينية وشمائله الحميدة وفضائله المكتسبة من حياة

المرابطة التي لا تقيم حساباً لمحترفي المديح من الشعراء الغـواه .

وبالمثل ؛ نفت عن يوسف تهمة اضطهاد أهل الفكر استناداً إلى نص لصاحب الحلل الموشيه (١١) يقول : « كان يوسف يفضل الفقهاء ويعظم العلماء ويأخذ برأيهم » . فضلاً عن كون نقيصة الاضطهاد لاتتفق « وتشبعه بالروح السلفية المتسامحة » .وتلاعبت الباحثة بدلالة مصطلح الفقيه في الحضارة العربية الإسلامية كعالم بأمور الدين والدنيا ؛ لتستخلص أن يوسف حين « تعصب للفقهاء » كان بتعصب للعلماء في كل فن وباب من أبواب المعرفة . لكنها لم تجد مناصا من الإذعان والتسليم بتطرفه الفكري . والغريب أنها حاولت تحويل تلك الآفة البغيضة إلى حسنة ومأثرة نتيجة استهدافه «القضاء على أهل البدع والأهواء الذين كانوا ينخرون جسم الوحدة الإسلامية بالمشرق » (١٢) .

ولم تنس الباحثة تصيد بعض أقوال المستشرقين من أمثال روفنسال وكوديرا وبالنثيا ممن فطنوا إلى تحامل كتاب الموحدين على المرابطين ونفخت فيهما لتحدث نزعة تبرر كل نقائض العصر المرابطي .

وعن علي بن يوسف نافحت الباحثة وفق ذات المنطق والمنهج الذي دافعت بها عن والده . لذا نفت عنه مسؤولية إحراق كتب الغزالي وألقت بالتهمة على الفقهاء ثم عادت تبرر مسلك الفقهاء على أساس أن كتب الغزالي ـ وخاصة كتاب « إحياء علوم الدين » كتاب «صوفي يعتمد الفلسفة الكلامية التي يحرمها المالكية » . أما حقيقة اضطهاد علي بن يوسف للمتكلمة والصوفية والفلاسفة فأرجعتها الباحثة لأسباب سياسية فحسب . فحسبانا ؛ تورطهم في زعزعة أمن

الدولة » (١٣) . لقد فرقت الباحثة بين التصوف المرابطي القائم على الزهد والتبتل وبين التصوف الأندلسي الذي روج له ابن عربي وابن مسرة والباطنية الذين حولوه إلى إديولوجية سياسية غايتها إحداث الفوضى (١٤) . ولا ترى الباحثة مندوحة عن اضطهاد هؤلاء لا لشيء إلا أنهم نهلوا من الغزالي والفارابي وابن سينا وإخوان الصفا الذين تأثروا بالغنوصية والأفلاطونية المحدثة (١٥) . تلك التي غذت فكر جماعات المريدين الذين تزعمهم ابن برجان وابن العريف اللذين شقا عصا الطاعة على المرابطين من ناحية واللذين « نسجا أفكاراً غير مألوفة » من ناحية أخرى (١٦) .

وتنفي الباحثة اضطهاد المرابطين الفلاسفة ؛ استناداً إلى أن بعضهم من أمثال « ابن باجه وابن طفيل وابن رشد عاشوا في كنف دولتهم » . . كما تبرر نهجهم السري في الكتابة « خشية الفقهاء والعوام وليس المرابطين » (١٧) . بل تزعم أن المرابطين احتضنوا بعض المتكلمة وشجعوهم مستشهدة بما جرى من حديث بين علي بن يوسف وبين قاضي قرطبة بشأن الأشعري والاسفرائيني والباقلاني ، والاتفاق على أنهم « أئمة رشاد وهداية يجب الاقتداء بهم » . وتدعم مذهبها بما شاع من تداول مصنفات في علم الكلام في ظل المرابطين ، بل تؤكد أن الأخيرين استوزروا بعض المتكلمين والفلاسفة الذين « حظوا في ظلهم بتسامح عظيم » ؛ ضاربة المثل بمالك بن وهب وابن باجة (١٨) . وتنهي الباحثة دفاعها المجيد عن تسامح المرابطين بإثبات تواجد « إخوان الصفا » فضلاً عن تصوف ابن عربي المتطرف في كنف الدولة المرابطية .

ومع تقديرنا لجهد الباحثة في طرح القضية وتناولها ، ومع تسليمنا

بقدرتها على توظيف النصوص وسلاسة العرض ؛ إلا أننا نأخذ عليها المبالغات في التخريجات واعتساف الأحكام .

ففيما يتعلق بالمصادر القديمة التي أطلعت الباحثة على كل ما توافر منها ؛ نلاحظ قلة ما يخدم وجهة نظرها بالقياس إلى شبه الإجماع على إدانة المرابطين فكرياً .

ونفس الشيء يقال عن المراجع الحديثة التي حاولت الباحثة تحريف مقولاتها لخدمة وجهة نظرها المسبقة . فحتى أولئك الذين نبهوا إلى حقيقة المؤامرة المعرفية من قبل الموحدين على المرابطين لم ينكروا اتهام المرابطين بالتعصب الفكري . ولا أقل من ضرب أمثلة في هذا الصدد .

يقول جارسيا جومس [١٩] عن انحدار الأدب في ظل المرابطين : « لقد بدأ الشعر في عصرهم يلفظ آخر أنفاسه » .

ويقول كلودكاهن [٢٠] : « إتسمت عقلية المرابطين بالخشونة والسطحية والتزمت واستقر على يد الفقهاء نوع من الإستبداد المنافي للحياة الدينية الصحيحة » .

ويرى ألفردبل [٢١] أن « عصر المرابطين كان نذيراً بالقضاء على التفكير العقلي » .

ويذهب دي بور [٢٢] إلى أنه « بوصول المرابطين إلى الحكم لاح في الأفق أن زمن الثقافة الرفيعة والبحث الحر قد أنقضى » .

ويقول بروفنسال [٢٣] : « جرد الفكر في عصر المرابطين من روح الكشف وانساق القوم وراء التقليد وانصرفوا عن النظر والاجتهاد » .

أما دوزي فقد ندد بالمرابطين أيما تنديد . ونكتفي باقتباس ما

أثبتناه من أقواله في دراسة [٢٤] سابقة ما يلي : « كان مجيء المرابطين نذيراً بانقلاب بعيد المدى ؛ فقد دالت دولة الحضارة وقامت الهمجية على أنقاضها . وحلت الخرافات وذهب التسامح وسيطر التعصب تحت نير الفقهاء والعسكر . وحلت أصوات صليل السيوف وخرافات الفقهاء محل المحاورات الفلسفية . ونضب الشعر والموسيقى » .

إن هذا الإجماع على إدانة المرابطين فكرياً من قبل ثلة من الدارسين الثقاة لا يمكن أن يكون مجاراة لتحامل المراكشي على المرابطين كما تزعم الباحثة . وبالتالي فإن القرائن والأدلة التي ساقتها لنفي هذا الاتهام لا تقوى أمام النقد الموضوعي . وإليكم البرهان :

(١) أن المراكشي لم ينفرد بالكشف عن تعصب المرابطين ؛ بل شاركه الرأي كافة المؤرخين القدامى مشارقة ومغاربة . وحسبنا الرجوع إلى بعض هؤلاء الثقاة من أمثال صاحب الحلل الموشية وابن القطان وابن عذارى وابن أبي زرع وابن أبي أصيبعة الذين أوردت الباحثة آراءهم في هذا الصدد بما يغني عن اللجاج .

(٢) أن قطع الباحثة بأن مصطلح « الفقيه » في الحضارة الإسلامية يعني العالم بالعلوم الدينية والدنيوية صحيح حقاً ، لكن هذا المعنى لا ينسحب على ذات المصطلح في عصر المرابطين ، إذ اقتصر ـ كما أجمعت المصادر ـ على شيوخ المالكية وحدهم ممن هيمنوا على السياسة وحازوا الوظائف الهامة وأقطعوا الأرض وشكلوا مع اللمتونيين ائتلافاً « ثيوعسكريا » كان مسؤولاً عن انتكاس الحياة العقلية . وهو ما أثبتناه في دراسة سابقة [٢٥] .

(٣) أما عن تبرير الباحثة تعصب المرابطين للمذهب المالكي بحرصهم

على الحفاظ على وحدة الغرب الإسلامي تحاشياً لما وقع في الشرق آنذاك من جراء مؤامرات أهل الأهواء والبدع ؛ فينطوي على عديد من المفارقات . أولها ؛ إعتراف الباحثة ضمنياً بتعصب المرابطين فكرياً وهو ما حاولت نفيه . وثانيها ؛ أن ما أسمتهم « بأهل الأهواء والبدع » لم يكونوا سوى صفوة « الإنتليجنسيا » الإسلامية المعبرة عن التيار البورجوازي الذين يعزي إليه الفضل في بناء صرح الحضارة الإسلامية . وأن اضطهادهم في الشرق كان له ما يماثله في الغرب . وفي ظني أن اضطهاد هذا التيار « الليبرالي » كان نذير الإنهيار التام الذي حل بالعالم الإسلامي سياسياً وحضارياً (٢٦) . وثالثها ؛ أن الوحدة الإسلامية المزعومة كانت قد انصرمت مذ تجزأت « الخلافة » إلى عباسية وفاطمية وأموية بالأندلس .

(٤) وفيما يتعلق بزعم الباحثة بأن تواجد هذه التيارات في ظل إمبراطورية المرابطين ينهض دليلاً على تسامحهم الفكري ؛ فزعم مردود . وهذا راجع إلى أن المرابطين استأصلوا شأفة هذه التيارات في بلاد المغرب تماماً . كما كان تواجدها في الأندلس هامشياً . ولا يرجع هذا التواجد لتسامح المرابطين بقدر ما يرجع إلى ضعف قبضتهم على مصائر الأمور في الأندلس . ومع ذلك لاقى أصحابها الأمرين على يد المرابطين . إذ صودروا واضطهدوا وأحرقت كتبهم فتحولوا إلى المعارضة بالسنان بعد أن عجزوا عن التعبير على معتقداتهم باللسان .

(٥) استشهاد الباحثة ببعض المصنفات في علم الكلام إبان الوجود المرابطي ينطوي على مغالطة أيضاً . فما وجد لا يتعدى أرجوزة

في علم الكلام كان يتداولها الطلبة في الأندلس ، كذا بعض إشارات في كتب الفقهاء ذكرت عرضاً في مصنفاتهم من باب التحريم والتجريم ليس إلا .

(٦) ما ذهبت إليه الباحثة من استوزار علي بن يوسف بعض المتكلمة كابن باجة وابن وهب لا يعني دليلاً على تسامحه الفكري بقدر ما ينهض على بعد سياسي فحواه محاولة تهدئة الخواطر المعادية للوجود المرابطي بالأندلس ، فلما لم تحقق هذه السياسة أغراضها اضطهد المرابطون ابن باجة . وحسبنا أنه مات مسموماً ، وأن كتاباته تنبيء عن وحدته ومعاناته ورفضه العصر برمته [٢٧] . كما وجهت تهمة الإلحاد إلى مالك بن وهب بشهادة الباحثة[٢٨] . لذلك لجأ إلى التقية ؛ فكان يكتب خلسة وخيفة ثم « انصرف أخيراً عن النظر لما لحقه من المطالبات بدمه » [٢٩] .

(٧) جزم الباحثة بأن بعض مشاهير الفلاسفة كابن رشد وابن طفيل عاشوا في كنف المرابطين ينطوي على خطأ فادح . إذ الثابت أنهما عاشا في كنف الموحدين لا المرابطين . وبرغم تسامح الموحدين لم يقدر للفيلسوفين أن يبدعا في مأمن . فابن طفيل عمد إلى الرمز كما تشهد روايته « حي بن يقظان » خوفاً وتقيه . وابن رشد اضطهد وصودر كما هو معروف .

أما من عاش من الفلاسفة في كنف المرابطين فهما ابن باجة الذي أشرنا إلى سوء مصيره وابن مسرة الذي أحرقت كتبه في قرطبه [٣٠]

(٨) أما عن حجة الباحثة بشأن تبجيل علي بن يوسف لكتابات الإسفرائيني والأشعري والباقلاني ؛ فلا تفهم إلا في إطار كونهم

أشعرية محافظين . ومعلوم أن الغزالي الذي كان يروج لهذا المذهب في المدارس النظامية بالشرق على حساب علم الكلام والفلسفة كان نصيراً للمرابطين في بداية حالهم . ثم انقلب عليهم لتعصبهم الفكري ـ كما سنثبت بعد قليل ـ فأحرقت كتبه وكتب هؤلاء بالتبعية .

(٩) إن حادثة إحراق كتب الغزالي على يد المرابطين في المغرب والأندلس قرينة دامغة على الأزمة الفكرية المرابطية . ولا عبرة ألبته بدفاع الباحثة عن المرابطين في هذا الصدد . فسواء كانت حادثة « الإحراق من تدبير الفقهاء أو من تدبير علي بن يوسف فالثابت أنها أحرقت بالفعل . وأن علي بن يوسف كان ضالعاً في تتبع المعارضين ومصادرتهم وطردهم خارج ديار المرابطين . ومعلوم أن هؤلاء المعارضين كانوا ـ حسب اعتراف الباحثة ـ من « الكتاب المجيدين والشعراء المحسنين » (٣١) الذين سفكت دماؤهم واستصفيت أموالهم (٣٢) .

وتبدو فداحة حادثة الإحراق إذا ما علمنا أن فكر الغزالي عموماً كان معتدلاً ومحافظاً ، فما بالك بخصومه من المتكلمة والفلاسفة العقلانيين والطبيعيين ؟ لقد بلغ التعصب والتزمت المرابطي ذروته حتى أن العلوم الدينية من فقه وحديث قد أهملت وضرب بها عرض الحائط . لقد أهملت « الأصول » وجرى الترويج « للفروع » ؛ بحيث استغنى بها المرابطون عن مصادر التشريع من قرآن وحديث . ولعل هذا يفسر حنق الغزالي وتخليه عن تعضيد المرابطين ، كما يفسر انقلابه على دولتهم بعد أن كان نصيراً لدعوتهم (٣٣) .

لقد ذكر جولد تسيهر ـ بحق ـ أن « أمير المسلمين لم يحظ عنده إلا

من علم الفروع ونبذ ما سواها . وكثر ذلك حتى نسي الناس النظر في كتاب الله وحديث رسوله . ودان أهل الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في الكلام . » ويؤكد بروفنسال [٣٤] أن « علم أصول الفقه قد ألغي ، وأدى الاعتماد على الفروع إلى الإنسياق وراء التقليد » .

لذلك أصدر الغزالي كتاب « الإحياء » لفضح الفقهاء في الغرب الإسلامي وحرصهم على الدنيا وطمعهم في الحصول على المناصب الرفيعة وحسدهم العلماء والزهاد [٣٥] ومعلوم أن مذهب مالك أصلاً يحرم اقتراب فقهائه من السلطان .

وأكد ألفردبل [٣٦] أن الغزالي ندد بالمرابطين ودولتهم بعد أن تاب إلى رشده ولفظ السياسة وانصرف إلى العلم ؛ فكان على حق حين تصدى لإهدار حرية الفكر على يد المرابطين وفقهائهم ، فصب عليهم جام غضبه .

إن إحراق كتب الغزالي والمصادرة اللاهوتية على العقل والنظر دليل ناصح على أزمة الفكر في المجتمع المرابطي . ولانشك في أن هذه الأزمة تعكس أزمة الواقع في الغرب الإسلامي على يد المرابطين . تلك التي كانت مماثلة لأزمة الواقع الإسلامي في الشرق آنذاك .

وهذا يقودنا إلى اختتام هذه الدراسة ؛ برؤيتنا الخاصة التي تفسر أسباب تلك الأزمة . وبرغم تناولنا لها في دراسة سابقة ؛ لا أقل في هذا المقام من محاولة إعادة طرحها ولو بايجاز .

الثابت ان حركة التاريخ وصيرورته تتسمان بالشمولية . بمعنى أن التطور والتقدم او النكوص والتخلف يشمل كافة جوانب الحياة المادية

والفكرية والأخلاقية وحتى المعايير الجمالية ـ والثابت أيضاً ـ وفق نظرتنا ـ أن الأساس الإقتصادي هو الذي يخلق البنى ا لاجتماعية ، ويفرز من خلال صراع الطبقات أنماط الحكم والنظم .

وقد شهد العالم الإسلامي ـ بمشرقه ومغربه ـ نكوصاً حول منتصف القرن الخامس ؛ نتيجة حسم الصراع بين البورجوازية والإقطاع لصالح الإقطاعية . ويرجع ذلك في المحل الأول إلى هزال القوى البورجوازية خاصة بعد حرمانها من دور الوساطة في حركة التجارة العالمية على إثر فقدان العالم الإسلامي ما كان له من سيادة على البحار من ناحية وشيوع الفوضى السياسية التي أفضت إلى التشرذم والفرقة والصراع بين القوى الإسلامية من ناحية أخرى .

وفي ظل البورجوازية الهزيلة والهجينة كان محكوماً على الثورات « البروليتارية » بالفشل ، وأصبح « قلب » العالم الإسلامي عاجزاً عن السيطرة على الأطراف . وقد أتاحت هذه الظروف « للبروليتاريا الخارجية » ـ أعني الشعوب البدوية الطرفدارية المهمشة ـ أن تجمع قواها وتنقض على « القلب » وتستأثر بالسلطة عن طريق الغلبة . وبحكم طبيعتها البدوية اعتنقت الإسلام ـ سطحياً ـ على المذهب السني . وبرغم مراهقتها السياسية ؛ استطاعت أن تنفرد بالسلطة نتيجة انهيار القوى الأخرى المتحضرة من ناحية ونتيجة اضطلاعها بدور عسكري جهادي ضد أخطار « دار الحرب » من ناحية أخرى . ونظراً لفقدان العالم الإسلامي معظم موارده المالية ـ نتيجة سيطرة «دار الحرب»على تجارة العبور العالمية ـ جرى إقطاع الأرض وتوزيعها بين العسكر . كما أنه نظراً لإستيلائها على السلطة مغالبة افتقدت إلى المشروعية . ولكونها قوى عسكرية في المحل الأول كانت بحاجة إلى

إضفاء طابع الشرعية على حكوماتها عن طريق شراء ذمم الفقهاء من شيوخ مذهبهم السني . ولعل هذا يفسر التحالف « الثيو - عسكري » الذي غلف كافة هذه النظم بطابعه في الشرق والغرب على السواء .

كان من البديهي أن يعزز نمط الاقطاع السائد أبنيته الفكرية . ومعلوم أن التيولوجية الغيبية والنصية الأثرية التسليمية تمثل الغطاء الفكري للإقطاعية . وهذا يفسر إحياء مذهب الأشعري الممزوج بالصوفية ليصبح حجر الزاوية في إديولوجيات النظم العسكرية الشرقية كالسلاجقة والأيوبيين والمماليك ومن نحا نحوهم في الشرق الإسلامي . كما يفسر إخفاق وإحباط التيارات العقلانية الليبرالية والفلسفية نتيجة فشل القوى البورجوازية .

وبالنسبة للغرب الإسلامي ؛ تنسحب ذات التطورات . فقد أخفقت كافة التجارب الخارجية والشيعية والاعتزالية سياسياً بعد أن تعرض البحر المتوسط لأخطار القوى النصرانية ، وبعد عرقلة حركة التجارة بين الشمال والجنوب إبان مرحلة الفوضى الزناتية . وكان انسحاب الفاطميين إلى الشرق بمثابة فشل البورجوازية الإسلامية في المغرب في تحقيق الوحدة السياسية . كما كان سقوط الخلافة الأموية في الأندلس وظهور دول الطوائف تعبيراً عن ذات الظاهرة .

أدت هذه الظروف الداخلية والخارجية - التي تضافرت على هزيمة البورجوازية - إلى ظهور قوى بدوية طرفدارية لتلعب دوراً هاماً في ملأ هذا الفراغ السياسي ومواجهة أخطار النصارى براً وبحرا . لم تكن هذه القوى الجديدة إلا القبائل الصنهاجية الجنوبية التي كانت تضرب في الصحراء على هامش الحياة السياسية في المغرب .

وبفضل الإديولوجية المالكية النصية التأمت عصبية صنهاجة اللثام وطمحت إلى دور سياسي هام . وقد ساعدها على ذلك تشرذم القوى المغربية وصراعاتها الداخلية . واستطاع الملثمون الإجهاز عليها نتيجة طاقتهم العسكرية الفذة المستمدة من طبيعتهم البدوية . وكما استنجد العباسيون بالسلاجقة في الشرق لردع البيزنطيين ؛ استنجد أهل الأندلس بالمرابطين لمواجهة أخطار النصارى . وبرغم إخفاق المرابطين في القضاء على هذا الخطر إلا أنهم اكتسبوا شهرة عظمى نظراً لدورهم الجهادي في تأجيل سقوط الأندلس . وكما دعم السلاجقة مذهب أهل السنة الأشعري ؛ إلتف المرابطون حول مذهب مالك المحافظ . وإذ شكل الإقطاع نمط الإنتاج في الشرق في عصر السلاجقة شكل بالمثل نمط الإنتاج السائد في إمبراطورية المرابطين .

وكان لابد للإقطاع المرابطي من إفراز أغطيته الفكرية التي تمثلت في التعصب لمذهب مالك الذي ائتلف فقهاوة في حلف « ثيُو - عسكري » مع أمراء المرابطين . وكما اضطهدت التيارات الليبرالية في الشرق على يد السلاجقة اضطهدت في الغرب بالمثل على يد المرابطين .

وهذا يفسر وحدة حركة التطور في العالم الإسلامي شرقاً وغرباً . كما يفسر اضطهاد المرابطين لشراذم الخوارج والمعتزلة والشيعة في المغرب والأندلس .

وإذا كانت التيارات الليبرالية المعبرة عن البورجوازية المجهضة في الشرق قد عبرت عن نفسها في التصدي لمعارضة النظام السلجوقي - كالإسماعيلية على نحو خاص - فإن ذات القوى في

الغرب الإسلامي تصدت لمعارضة المرابطين ـ كحركات المريدين في الأندلس والموحدين في المغرب ـ فكرياً وسياسياً وعسكرياً . وكان فشل هذه الحركات ـ باستثناء الموحدين ـ بمثابة تأكيد لاستمرارية سيادة الإقطاعية العسكرية الثيوقراطية في العالم الإسلامي بأسره . وهذا يفسر بداية انهيار العالم الإسلامي سياسياً وحضارياً .

صفوة القول ـ أن سياسة المرابطين الفكرية أسست على التزمت والتعصب ، وبالتالي اضطهاد العقل والنظر لصالح النقل والأثر . وأن هذه السياسة لم تكن اختياراً فكرياً بقدر ما كانت استجابة طبيعية لظروف إقتصادية ـ اجتماعية .

الهوامش

(١) عن هذه الرؤية التي تشكل اختيارنا الفكري والمنهجي ، راجع : محمود اسماعيل / : سوسيولوجيا الفكر الإسلامي حـ ٢ ط . الدار البيضاء ، ص ٢٣٥ وما بعدها .

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ط . القاهرة ١٩٤٩ ص ٢٤٥ .

(٣) وصف إفريقيا ص ١٣٨ .

(٤) المعجب ص ٣٦١ .

(٥) منى حسن محمود : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في مراكش في عصري المرابطين والموحدين ـ رسالة دكتوراه ـ مخطوطة ـ ص ٣٢٩ .

(٦) الحسن الوزان ص ١٣٨ ، المراكشي : ٢١٦ .

(٧) الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في مراكش ص ٣٥٤ .

(٨) المعجب ص ٢١٥ .

(٩) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين . القاهرة ١٩٦٦ . ص ٤١٤ .

(١٠) الأندلس في نهاية عصر المرابطين وبداية عصر الموحدين ـ رسالة دكتوراه ـ مخطوطة ـ ص ٢٨٩ .

(١١) مؤرخ مجهول : تحقيق سهيل زكار ـ وعبد القادر زمامة ـ الدار البيضاء ١٩٧٨ ص ٨٢ .

(١٢) عصمت دندش : المرجع السابق ص ٢٩١ .

(١٣) نفسه ص ٢٣ .

(١٤) نفسه ص ٢٩٧ .

(١٥) نفسه ص ٢٩٨ .

(١٦) نفسه ص ٢٦٨ .

(١٧) نفسه ص ٣٠١ .

(١٨) نفسه ص ٣٤١ .

(١٩) الشعر الأندلسي : ترجمة حسين مؤنس ـ القاهرة ١٩٥٦ ص ٥٦ .

(٢٠) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية : ترجمه : بدر الدين القاسم . دمشق ١٩٧٧ .
(٢١) الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي : ترجمة عبد الرحمن بدوي . بنغازي ١٩٦٩ - ص ٢٤١ .
(٢٢) تاريخ الفلسفة في الإسلام : ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده . الجزائر ص ٣٧٤ .
(٢٣) الإسلام في المغرب والأندلس - ترجمة السيد عبد العزيز سالم وزميله . القاهرة ١٩٥٨ - ص ٢٥٠ .
(٢٤) راجع : محمود إسماعيل : مقالات في الفكر والتاريخ . الدار البيضاء ١٩٧٩ ص ٩٣ .
(٢٥) نفسه ص ٦٥ - ٩٣ .
(٢٦) محمود إسماعيل : سوسيولوجيا الفكر الإسلامي حـ ٢ ٢٣٥ وما بعدها .
(٢٧) دي بور : المرجع السابق ص ٢٧٥ وما بعدها .
(٢٨) عصمت دندش : المرجع السابق ص ٣٤٠ .
(٢٩) إبن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، حـ ٣ ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ١٠١ .
(٣٠) دي بور : المرجع السابق ص ٣٧١ .
(٣١) الأندلس في نهاية المرابطين وبداية الموحدين ص ٣٥٤ .
(٣٢) ألفردبل : المرجع السابق ص ٣٤٠ .
(٣٣) محمود إسماعيل : مقالات ، ص ٦٦ وما بعدها .
(٣٤) المرجع السابق ص ٢٥٠ .
(٣٥) إحياء علوم الدين . حـ ١ ، القاهرة ١٣٠٢ هـ ، ص ٤٥ .
(٣٦) المرجع السابق ص ٢٤٦ .